معهد فلسطين لأبحاث الأمن القومي

ألمانيا: الإعلام والسياسة من الداخل

كتب الأستاذ عبدالله الزماري

مدير وحدة الإعلام واستطلاع الرأي

تتسع دائرة التضامن والتعاطف الشعبي الأوروبي مع معاناة المواطنين الفلسطينيين مع استمرار القتل والعدوان الذي تشنه دولة الإحتلال على فلسطين بشكل عام، وقطاع غزة بشكل خاص، وبالرغم من حدوث بعض الليونة في مواقف عدد من الحكومات الأوروبية التي أيدت بشكل كامل العدوان الصهيوني، إلا أن المسافة الكبيرة بين المواقف الشعبية من جهة، والرسمية لكثير من الدول الاوروبية، لا زالت واضحة وإن كانت مع بعض التفاوت.

لا تعترف ألمانيا بفلسطين دبلوماسيا كدولة، ومع ذلك، لدى ألمانيا مكتب تمثيل في رام الله، كما هناك أيضًا بعثة فلسطينية في برلين، وهناك اتصالات عديدة بين المجتمعين، وتقدم ألمانيا الدعم الاقتصادي للأراضي الفلسطينية من خلال الشراكات التنموية. تلتزم ألمانيا دبلوماسيًا بما يسمى "حل الدولتين"، وعملت كوسيط في الصراع العربي الإسرائيلي في الماضي، خاصة خلال مباحثات صفقات "تبادل الأسرى"

تعتبر ألمانيا _مع ذلك_ من أكثر الدول تشددًا وتعنتًا في مواقفها الرسمية من العدوان الصهيوني على غزة، وقد التزم المستشار (أولاف شولتز) بتقديم الدعم الألماني لإسرائيل ووعد بحظر جميع أنشطة حماس في البلاد واستهداف كل المشتبه بهم بتعاطفهم مع حماس، وعلى خلاف معظم الدول نجد تماهيا مع الموقف الحكومي من معظم وسائل الإعلام الألمانية الرئيسية ، إضافة إلى نسبة كبيرة من مؤسسات المجتمع المدني والمؤسسات الثقافية، فعلى سبيل المثال وفي منتصف أكتوبر ألغى معرض فرانكفورت للكتاب مشاركة الروائية الفلسطينية (عدنيّة شبلي)، والتي كان من المفترض تكريمها من ضمن فعاليات المعرض، تحت ذريعة حدوث لبس في فهم تكريمها خلال "الحرب"، كما تم اتهام الفيلسوف السلوفيني سلافوك زيزيك "Slavoj Žižek" بالتعاطف النسبي مع حماس فقط لانه دعى للاستماع للفلسطينيين بغية فهم افضل للصراع، بينما الغت زعيمة الحزب الديمقراطي الإشتراكي **(ساسكيا إسكين)** اجتماعًا مع عضو الكونجرس والمرشح السابق للرئاسة في أمريكا **(بيرني ساندرز)** بسبب موقفه من التصعيد المستمر على غزة، حالة أخرى تم منع المؤلف الموسيقي (نيكولاس جآر Nicolás Jaar) من إعطاء ورشة في أكاديمية الفنون الجميلة في ميونيخ بسبب وصفه الموقف

الأمريكي من العدوان على غزة بأنه "غير مبرر"، في الوقت الذي وصفت صحيفة Süddeutsche Zeitung (جآر) بأنه مؤيد لحماس. أتي كل ذلك متزامنا مع موجه انتقاد وهجوم، تجتاح الصحف الالمانية، اليمينية واليسارية على حد سواء، ضد كل ما تصنفه نشاط معادٍ لإسرائيل، ويشمل ذلك مسيرات الإحتجاج السلمية للتضامن مع الفلسطينيين والمطالبة بوقف اطلاق النار، حتى أن الهجوم طال بعض المفكرين اليهود امثال "ناعومي كلاين Naomi Klein" "وجوديت باتلر Judith Butler ". لم تكن سياسات المؤسسات الثقافية والإعلامية، بعيدة كثيرًا عن مواقف الحكومة الالمانية، التي تبنت سياسة شديدة التأييد لدولة الإحتلال وعدوانه على فلسطين، تحت بند "حق إسرائيل في الدفاع عن نفسها"، رافضة بنفس الوقت الدعوات إلى وقف اطلاق النار والصادرة عن أطراف عدة بينها الأمم المتحدة، وقد منعت ألمانيا بشكل صارم كل المسيرات المتضامنة مع الضحايا الفلسطينيين، تحت ذريعة انها تشجع على معاداة السامية.

ويصبح فهم هذه السياسة أسهل، عندما نأخذ في الاعتبار أن ألمانيا شعرت منذ فترة طويلة بمسؤولية خاصة تجاه "إسرائيل"، التي تأسست رسمياً كوطن لليهود بعد ثلاث سنوات فقط عن "المحرقة". في عام 2008، أوضحت المستشارة الألمانية آنذاك أنجيلا ميركل مسؤولية ألمانيا تجاه إسرائيل باعتبارها "Staatsräson" – أو "سبب الدولة" – مما يشير إلى أن حماية مصالح إسرائيل جزء لا يتجزأ من وجود ألمانيا.

بشكل عام، تعد سياسة Staatsräson سياسة مجردة، تتميز بانتقاد خفيف _إن وجد_ للأنشطة الإستيطانية الإسرائيلية، والدعم الألماني غير المشروط لتدابير "إسرائيل" في زمن الحرب، وما بعد السابع من أكتوبر 2023، تم التأكيد على هذا الموقف الداعم بشكل متكرر "في هذه اللحظة، لا يوجد سوى مكان واحد لألمانيا. هذا هو جانب إسرائيل"، حسب المستشار الالماني شولتز. "وهذا ما نعنيه عندما نقول إن أمن إسرائيل هو "سبب الدولة" بالنسبة لألمانيا".

وفي السنوات الأخيرة، اكتسب هذا المنظور نحو "إسرائيل" جاذبية عبر الطيف السياسي في ألمانيا، وفي حين أنه من المفهوم _نظرا لتاريخها_ فقد طورت ألمانيا درجة من الحساسية تجاه إسرائيل، إلا أن البعض يخشى من أن هذا الموقف المفرط الصريح على نحو متزايد مع "إسرائيل" بدأ في تجاوز القيم التي يجب أن توجه أي فرد سليم التفكير، نحو رفض الدولة الحازم لمعاداة السامية، وعلى نفس المستوى رفض بقية أشكال العنصرية الأخرى.

الأوامر بمنع المظاهرات المتضامنة مع فلسطين، والتي اصدرتها الشرطة الألمانية، تحت ذريعة

تشجيعها على معاداة السامية، وجدت بعض التصرفات التي تغذيها مثل مهاجمة كُنُس يهودية ومنازل يهود، إلا أن استمرار وتشديد المنع أدى إلى ظهور مخاوف من قمع حرية التعبير، وأصبحت المخاوف بشأن السلوك التمييزي من جانب الشرطة أكثر إلحاحاً من أي وقت مضى، فقد طال المنع كل المظاهرات المؤيدة لحقوق الفلسطينيين، ومسيرة دعت لها منظمة "الصوت اليهودي للسلام" وكذلك سباق مدرسي تحت إسم "شبيبة ضد العنصرية"، وقد تواترت تقارير ومقاطع فيديو للشرطة تقوم باعتقال العديد من الشبان فقط لأنهم يرتدون ألوان العلم الفلسطيني، واعتقال مواطنين ألمان، فقط لأنهم يحملون يافطات تطالب بوقف الحرب. وفي 13 أكتوبر منعت الشرطة شعار "من البحر إلى النهر، باعتباره مخالفة جنائية، تشجع على العنف، في الوقت نفسه، أصدرت كاتارينا غونتر–فونش، عضو مجلس الشيوخ في برلين والمسؤولة عن التعليم، توجيهًا لمديري المدارس بأن لهم حرية التصرف في منع أو فصل الطلاب الذين يرتدون الكوفية أو العلم أو ألوان العلم الفلسطيني، أو أي رمز قد يظهر تعاطفًا مع الفلسطينيين، أو تاييدًا لهجوم السابع من أكتوبر، لأن ذلك يهدد السلام في برلين.

تحت عنوان "الحرية لمن يفكر بطريقة مختلفة"، وفي 23 أكتوبر، نشرت مجموعة من الفنانين والعلماء اليهود الذين يعيشون في برلين رسالة مفتوحة، تعارض صراحةً انتهاكات الحريات المدنية في ألمانيا تحت ستار سلامة اليهود، وجاء في الوثيقة: "كيهود، نرفض هذه الذريعة للعنف العنصري ونعرب عن تضامننا الكامل مع جيراننا العرب والمسلمين، وخاصة الفلسطينيين". مؤخرًا نائب المستشارة الألمانية روبرت هابيك، ألقى خطاباً، شجب فيه معاداة السامية المعاصرة، ووصف المسلمين فعليًا بأنهم معادون للسامية حتى يثبتوا خلاف ذلك. وشدد الرئيس فرانك فالتر شتاينماير على هذا الموقف بعد بضعة أيام من خلال دعوة الأشخاص من أصل عربي إلى النأي بأنفسهم عن حماس.

لا يمكن التقليل من **خطورة الدور الذي تلعبه وسائل الإعلام الألمانية** في تفاقم مثل هذه الافتراضات البغيضة، ومؤخراً أصدرت صحيفة "بيلد" الشعبية ذات الميول اليمينية، والأكثر انتشاراً في ألمانيا، بياناً حذرت فيه من تصاعد العداء "ضد قيمنا، والديمقراطية، وضد ألمانيا" منذ بداية عدوان الإحتلال على قطاع غزة، وقد تم التعبير عن آراء مماثلة في كثير من وسائل الإعلام الليبرالية واليسارية، أسوة باليمينية.

قبل بضعة أسابيع، ظهر المستشار الألماني أولاف شولتز، بعنوان بارز على غلاف مجلة دير

شبيجل تحت الاقتباس: "يجب علينا أخيرًا إجراء ترحيل على نطاق واسع"، ويعكس هذا تحولا نحو اليمين في سياسة اللجوء في ألمانيا، والذي فسره البعض على أنه استجابة وسطية مذعورة للارتفاع الكبير في دعم حزب البديل من أجل ألمانيا اليميني المتطرف ـ والمناهض بشدة للمهاجرين. وذهب السياسي الليبرالي ماكس موردهورست إلى ابعد من ذلك حيث أقرن كل من اللاسامية ومسألة المهاجرين، في تغريدة له في 6 نوفمبر " اللجوء ومعاداة السامية لابد ان يبقيا على قمة اولويات السياسة الالمانية"

فكرة اعتبار معاداة السامية في ألمانيا مشكلة "مستوردة" كما يصورها العديد من السياسيين؛ تنفيها الاحصائيات الاخيرة، حيث كشفت الشرطة الفدرالية الالمانية ان 80% من الحوادث المعادية للسامية المبلغ عنها نُسبت في الواقع إلى أفراد أو مجموعات يمينية متطرفة.

لكن هذه الحقائق لم تمنع موردهورست من اقتراح "تمييز أكثر وضوحا بين الحقوق الأساسية الألمانية وحقوق كل إنسان" وهو اقتراح يعني بالدرجة الأولى منع الأجانب من خارج الاتحاد الأوروبي من المشاركة في الأنشطة السياسية في ألمانيا.

تثير تصريحات مثل تصريحات موردهورست مخاوف متزايدة، بشأن تزايد معاداة السامية في ألمانيا وتحويلها إلى وقود لمعاداة الاجانب على الطريقة المكارثية[1]. ويشعر الفلسطينيون وغيرهم من المهاجرين في البلاد الآن بأنهم ملزمون بإظهار جدارتهم بالاندماج في المجتمع، وهم حذرون بشكل متزايد في التعبير عن آرائهم بشأن إسرائيل وفلسطين.

مع تزايد التشدد الالماني تجاه دعم "إسرائيل" منذ بدء عدوانها الحالي على غزة، الا ان الامر ليس جديدا، فقبل عام تلقى صيدلي فلسطيني درس وعاش في ألمانيا لعشرة سنوات، مذكرة من حكومة برلين تفيد بحرمانه من الحصول على الجنسية الالمانية ولزوم ترحيله، على خلفية منشورات كتبها على فيسبوك تفيد بأن عدة عمليات قام بها مقاتلون فلسطينيون، لم تكن من فراغ بل جاءت رداً على اعتداءات سابقة ومتواصله يقوم بها الإحتلال ضد الفلسطينيين.

إن احتواء برلين لاكبر جاليو فلسطينية في أوروبا، ومع استمرار جذبها للمزيد من "الإسرائيليين" أصبح الصراع الإسرائيلي الفلسطيني على نحو متزايد معيارا لقياس مدى تراجع التزام ألمانيا بمجتمع شامل ومتعدد الثقافات.

[1] المكارثية: سلوك يقوم بتوجيه الاتهامات بالتآمر والخيانة دون الاهتمام بالأدلة وينسب هذا الاتجاه إلى عضو بمجلس الشيوخ الأمريكي اسمه "جوزيف مكارثي" فترة خمسينيات القرن العشرين

وحول الاسباب والخلفيات التاريخية، وقال سعيد عطشان، الأستاذ المشارك في دراسات السلام والصراع والأنثروبولوجيا في كلية سوارثمور في بنسلفانيا، إن هناك عددًا من الأسباب التي تجعل ألمانيا تكثف حاليًا موقفها."جزء من ذلك هو العنصرية الكامنة حيث يوجد ترتيب هرمي للقيم للإنسانية، حيث لا يُنظر إلى الحياة الفلسطينية على أنها متساوية، مع حياة الألماني او الإسرائيلي".

هناك أيضًا بيئة من القلق والخوف وكراهية الأجانب تحيط باللاجئين من الشرق الأوسط الذين يتعرضون للوصم الشديد، والتنميط العنصري في المشهد الألماني.

وقالت مؤرخة الفن وعالمة الآثار الألمانية الإسرائيلية كاتارينا جالور، التي شاركت في تأليف كتاب The Moral Triangle، وهو كتاب صدر عام 2020 يستكشف العلاقات غير المتكافئة بين الإسرائيليين والفلسطينيين والألمان في برلين، إن أيًا من هذا ليس جديدًا، فهو يتماشى إلى حد كبير مع الموقف الألماني منذ السبعينيات، والذي يقف إلى جانب إسرائيل سياسيا في الشرق الأوسط ويقدم الدعم لجيشها" حيث أمن إسرائيل ووجودها هو "Staatsraeson" أو "سبب الدولة" في ألمانيا.

وتلعب عقدة الذنب الألماني تجاه الهولوكوست دورا كبيرا في تحديد سياسات ألمانيا الداعمة "لإسرائيل"، إلا ان الدولة الالمانية ترفض بشكل قاطع مساواة او حتى تشبيه النكبة بالهولوكوست.

يقول كل من "عطشان" وجالور، انهما اكتشفا جهلا اساسيا حتى لدى معظم المثقفين الالمان، بارتباط ما بين الهولوكوست والنكبة، وأن اهتمامهم بالشرق الأوسط، يتعزز فقط عندما يكون التهديد موجها لليهود، متغافلين عن حقيقة ان ألمانيا تدعم سياسات لطالما حاولت تجاوزها.

في غضون أيام، بعد السابع من اكتوبر، تبنت الحكومة الألمانية موقفا داعمابشكل قوي، لجميع جوانب الرد العسكري الإسرائيلي، وهو موقف يستند لقناعات حول معاداة السامية، ودروس من التاريخ الألماني حول اليهود، والوضع السياسي الداخلي في ألمانيا، وتاريخ "إسرائيل" والفلسطينيين.

بالرغم من تخفيف الشرطة الامانية لقبضتها تجاه المتظاهرين المتضامنين مع الفلسطينيين، إلا ان الجو العام للخطاب في ألمانيا، وعلى مختلف الأصعدة، لا زال يدعم بشدة كل الاعمال العدوانية والعسكرية التي نفذتها دولة الإحتلال ضد الفلسطينيين ما بعد السابع من اكتوبر _وما قبله بالواقع_ وقد وصل هذا الدعم الرسمي والحزبي والنخبوي، إلى درجة عدم جواز التشكيك في دوافع "إسرائيل"، ولا حتى التشكيك في التزامها بحقوق الانسان، حتى مع قتلها الاف من الاطفال والنساء منذ بدء عدوانها الحالي على قطاع غزة.

هذا الموقف القوي والمتجذر في العقلية الالمانية، تلعب به عدة عوامل هامة، منها كما اسلفنا عقدة الذنب الالمانية تجاه اليهود، إذافة إلى تغلغل اليهود في كل مفاصل الحياة السياسية والاكاديمية في ألمانيا، إضافة إلى امتلاكهم لمعظم وسائل الإعلام الكبرى، من صحف وشبكات تلفزة، فمثلا تملك شركة "KKR" القابضة مجموعة "Axel Springer SE" الإعلامية ومركزها برلين، وتمتلك الأخيرة عدة صحف ومحطات تلفزة ووكالات اعلان المانية بارزة، حيث يسيطر رجال اعمال يهود على ملكية وإدارة "KKR" وAxel Springer S . كما تمتلك مجموعة شركات الملياردير اليهودي وقطب الإعلام العالمي روبرت ميردوخ عددا اخر من محطات التلفزة والصحف في ألمانيا، اسوة ببقية الدول الاوروبية والولايات المتحدة.

Funke media group والتي اسسها بالاصل كل من اريتش شاومان و جونثر جروتكمب، تحت اسم WAZ group قبل ان يتحول الاسم إلى فونكي ميديا، نتيجة عدد من عمليات الميراث والشراء والاندماج، معظم اسهمها ومجلس ادارتها يتكون من اليهود الالمان، وتمتلك المجموعة 18 صحيفة ومجلة وتبيع يوميا ما يقرب من ثلاثة ملايين نسخة مطبوعة من مجموع اصداراتها، اضافة إلى ملايين الزيارات اليومية لمواقع صحفها على الانترنت، هذه المجموعة الإعلامية ذات توجهات سياسية يمينية، سواء ما يتعلق بالشأن الداخلي الالماني او بالقضايا الدولية.

Süddeutsche Verlag وهي مجموعة قابضة تمتلك عدد من المجلات والصحف البارزة في ألمانيا خاصة منطقة غرب ألمانيا وتتوزع اسهمها ما بين شركة Südwestdeutsche Medien Holding GmbH باعتبارها الشركة المسيطرة، 81.25%، وهذه المجموعة ممولة من "جولدمان اند ساكس" احدى اكبر شركات النشر والتوزيع "معظم اسهمها لرجال أعمال يهود، ونسبة 18.75% مملوكة لعائلة النشر في ميونيخ فريدمان (SV Friedmann Holding GmbH، ميونيخ، ويمثلها يوهانس فريدمان).

بعد ما تقدم، برأينا فإن اية اختراقة للرأي العام الألماني، لصالح تأييد الحقوق الفلسطينية وتغيير نظرته للصراع الفلسطيني "الإسرائيلي"، يعتبر أمراً بالغ الصعوبة إن لم يكن مستحيلا في المدى المنظور "وربما أبدا"، مع ان هناك بعض الافراد والجهات اليسارية الألمانية تظهر تعاطفا وتضامنا مع الحقوق الفلسطينية، مع مشاركة خجولة في المظاهرات والمسيرات السلمية المعارضة للعدوان على غزة، والناظر إلى المسيرات والوقفات الاجتجاجية في المدن الالمانيةن والتي تتعاطف وتتضامن مع الفلسطينيين، سيجد الاغلبية الساحقة من المشاركين بها عم من الفلسطينيين والجاليات العربية

والتركية وجاليات بعذ الدول الافريقية والاسلامية، مع قلة تكاد لا تقارن من الألمان الاصليين، ومع تخفيف قبضة الشرطة على خناق المظاهرات مؤخرا، الا ان الشرطة لا زالت تمنع عدد من الشعارات والرموز، واصدرت الحكومة الالمانية قرارا بتجريم اي استخدام لهتاف او كتابة عبارة "من النهر إلى البحر، كما تقوم الشرطة الالماني بمراقبة منصات التواصل الاجتماعي، وتقوم بالاغارة على منازل واماكن عمل عدد من النشطاء الفلسطينيين/ والأتراك، وتعتقلهم وتصادر هواتفهم النقالة واجهزة لابتوب، كان اخرها قبل يومين حيث تم اعتقال 16 ناشطا بتهمة التضامن او الموافقة او التبرير لهجوم حماس في السابع من اكتوبر، معظمهم بسبب منشورات على منصات التواصل مثل فيسبوك وتويتر.